

الإنسانية في الفكر الغربي والإسلامي بين رهانات المساواة وتحديات التفاوت.

- دراسة تحليلية نقدية.

Humanity in Islamic and Western thought between the stakes of equality and the challenges of inequality.

- Criticalanalyticalstudy.

حميش امعر¹، بن علي محمد²

¹ مخبر الدراسات الاجتماعية و النفسية و الأنثروبولوجية ، جامعة أحمد زبانه غليزان -

الجزائر - maamar.hamiche@univ-relizane.dz

² مخبر الدراسات الاجتماعية و النفسية و الأنثروبولوجية ، جامعة أحمد زبانه

غليزان - الجزائر - mohamedbenali912@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/09/12 تاريخ القبول: 2023/02/01 تاريخ النشر: 2023/03/05

ملخص:

مرت الحياة البشرية بمراحل متعددة، عرفت فيها أنماطا مختلفة الرؤى للإنسانية، حملت رهانات الإنصاف والمساواة أمام تحديات التفاوت والإقصاء للإنسان ولحقه وهويته، فشكّل ذلك محورا أساسيا للدراسات الفكرية والدينية والفلسفية، وقد نال ذلك حظا وافرا في الفكرين الغربي والإسلامي، شملت محوري المساواة والتفاوت، في ظل الاختلافات الموجودة، فالدراسات الفكرية الغربية حرصت على تقرير حقوق الأفراد والجماعات، خاصة بعد مرحلة النهضة كذلك بالنسبة للفكر الإسلامي وتنظيره لحقوق الإنسان وحقوق الإنسانية، بعد مرحلة الرق والاستعباد التي سبقته.

تهدف هذه الدراسة إلى تبيان وتفصيل وضعية الإنسان والتصورات الفكرية والدينية لحقوقه وواجباته في الحياة، فلا شك أنّ الإنسان عانى كثيرا من العنصرية المتوحشة طيلة حياته، وقضايا الإنسان الحديثة والمعاصرة تعني المساواة في الحقوق والواجبات ونبذ العنصرية ودعوات التفاوت الطبقي بإعادة بعث الحقول الإنسانية المنسية والمسكوت عنها في الدين والفكر.

كلمات مفتاحية: المساواة، التفاوت، الفكر الغربي، الفكر الإسلامي، العنصرية.

Abstract:

Human life passed through multiple stages, in which different types of human visions were known, which bore the stakes of fairness and equality in front of the challenges of inequality and exclusion of the human being, his right and his identity. In light of the existing differences, Western intellectual studies were keen to determine the rights of individuals and groups, especially after the stage of the Renaissance, as well as for Islamic thought and its theorizing of human rights and the fields of humanity, after the stage of slavery and enslavement.

This study aims to clarify and detail the human situation and the intellectual and religious perceptions of his rights and duties in life. Man has suffered a lot from brutal racism throughout his life. Modern and contemporary human issues mean equality in rights and duties, renounce racism and calls for class inequality by reviving forgotten and silent human fields in religion and thought.

Keywords: equality, inequality, Western thought, Islamic thought, racism.

1. مقدمة

تطلّع الإنسان منذ الماضي البعيد إلى تصور العدالة الاجتماعية والحقوق العامة والتوازنات المنصفة في العالم الذي يعيش فيه، والذاكرة التاريخية تحمل أنماطا مختلفة لحياته على مر العصور، منها رحلاته الطويلة في البحث عن تحصيل الحقوق وتحقيقها بما في ذلك المساواة بينه وبين بني جنسه في ظل التفاضل والتفوق الموجود.

ولقد اتجه الفكر السياسي والفلسفي والديني لتقديم تصورات عامة للإنسانية، تضمن للإنسان كرامته وتصور حرياته في ظل الاستبداد والظلم والتمييز الذي تعرّض له منذ وجوده على الأرض.

كما تنطرت الأديان لهذا الموضوع في نصوصها بُغية تسطير نمط محدد يحقق أسمى أهداف الإنسان وحاجياته الضرورية، ويُؤصّل الإنسانية في الواقع تحقيقا وتطبيقا، ومن بين هذه الأديان، نجد الإسلام اهتم هو الآخر بحقوق الإنسان واعتبرها من أساسياته الأولية التي تناولها منذ تأسيسه، نظرا لوضعية الإنسان السابقة المعقدة وركّز على أهم المسائل التي تعيد له الاعتبار وتبرز هيئته وتحفظ وجوده بعدما كان عبدا يُباع ويُشترى، مصنّفا وفق مقاييس عنصرية، ولعلّ أهم نقطة انطلق منها الفكر الإسلامي وحرص على إعادة بنائها هي المساواة بين الناس جميعا، دون تمييز أو تفریق.

أما في الفكر الغربي نجد أصحاب نزعات الأنسنة ورواد المباحث الإنسانية همّ الآخرون صنفوا في الموضوع، مجموعة معتبرة من المبادئ و الأسس، قصد بناء إنسانية بعيدة عن كل المعوّقات التي كانت حاجزا أمام الحريات والمطالب الإنسانية في الماضي محاولين رد الاعتبار للإنسان بعد الممارسات العنصرية المتطرفة التي اجتاحتها في المرحلة الوسيطة.

إنّ المساواة الإنسانية موضوع شائك ومعقد جدا نظرا للموروثات الدينية الوضعية والتقاليد الاجتماعية التي صنّفت بني الإنسان منذ قرون خلت على حسب انتماءاتهم، وغالبا ما تكون على حسب طبيعتهم الفيزيولوجية المحددة باللون (أبيض-أسود)

حملش امعمر

أو البنية (قوي-ضعيف) أو الجنس (ذكر-أنثى)، وهذا ما طرح اشكالا حول كيفية إعادة بناء منظور جديد للإنسانية بوجود تراكمات قديمة صنعت فروقات تستند على الاستعلاء والعصبية والنسب و كانت سببا في الصدمات الفكرية والحضارية؟.

فكما هو معلوم أن وضعية الإنسان تختلف في الأمم والحضارات عبر الأزمنة باختلاف الإنسان نفسه، فبعد المحاولات السابقة التي استهدفت تحسين وضعيته والارتقاء به من الهامش إلى مصاف المركز، فهل تغيرت وضعية الإنسان وتحققت أهم أهداف المباحث الدينية والفكرية ألا وهي المساواة؟ أم مازال منطق التفاوت هو السائد في تصنيف البشر؟ وهل زالت الممارسات القديمة؟ أم هي مجرد شعارات تُمارس من خلالها الطقوس السابقة؟ وهل نجح الدين في رد الممارسات القبلية السابقة؟ أم يبقى مجرد نص تنظير بعيدا عن التطبيق؟ نحاول من خلال هذا البحث أن نستعرض أهم المبادئ والأصول الإسلامية والغربية والتصورات الهادفة لضبط حقوق الإنسان التي تحتوي على القيم الإنسانية خاصة تلك المتعلقة بالمساواة والتفاوت، مستعملين في ذلك المنهج التاريخي والنقدي في تحليل الموضوع.

2. الإنسان بين المساواة والتفاوت قبل مرحلة النهضة وما بعدها.

1.2 الإنسان في تاريخ الأمم والحضارات.

عرفت البشرية على مر التاريخ انتهاكات واسعة لحقوق الإنسان، فالإنسان عانى كثيرا، وطالما أراد أن يثبت وجوده، و يثور على مجموع الأعراف السائدة التي صنفته دون المنزللة التي يستحقها، وجعلته كيانا مجردا لا معنى له، فلم يُحترم وجوده الأسى، فعلى الرغم من أنه إنسان كغيره من بني البشر، كان يُعامل باعتباره سلعة أو أي شيء من الأشياء وحياته ملك لصاحبه فهو لا يتمتع بالشخصية القانونية التي يتمتع بها غيره (عوض، 2010، ص 47-48)، فعاش ضمن سلم حياة مبني على ترتيب البشر وفق أسس متوارثة و تقاليد متبعة.

الإنسانية في الفكر الغربي والإسلامي بين رهانات المساواة وتحديات التفاوت

لقد كان الإنسان سابقا موزعا بين قبائل وأمم وطبقات بعضها دون بعض وقوميات ضيقة وكان التفاوت بين هذه الطبقات تفاوتاً هائلاً كتفاوت بين الإنسان والحيوان و بين الحر والعبد وبين العابد والمعبود لم تكن هناك فكرة عن الوحدة و المساواة إطلاقاً(الندوى،1986،ص30)، وأحياناً يصنف دون منزلة الحيوانات التي كانت تُعتبر ذات طبيعة إلهية.

إنّ البشرية في تشكّلها الأول اعتمدت التفاوت أصلاً ثابتاً، فمنطق القوة والسلطة، وتهميش الضعفاء واستعبادهم، هو ما ساد المراحل الأولى، فكان (نظام الرق في المدنيات الأولى نظاماً معروفاً ومقبولاً)(عوض،2010،ص47) ومسلماً به حتى صار مع الوقت أمراً بديهياً، فنشأت بذلك نواة المجتمعات الأولى وتحتّم على الناس خوض غمار الصدامات، بين المهمشين والسائدين، ومنه صارت البشرية(تعرف العدوان أكثر مما تعرف الحق وتحترم القوة أكثر مما تحترم الحرمة)(عوض،2010،ص40).

إنّ فكرة الاستعلاء والتفوق الجنسي في تاريخ البشرية نابع من إحساس بعض الناس أنهم يتميزون ويمتازون عن غيرهم حيث كان بعضهم يدعي أنه من نسل الألهة و بعضهم يروج بأن الدماء التي تسري في عروقه ليست من نوع دماء العامة، وإنما هو الدم الملوكي العالي النبيل(الواعي،1988،ص540)لذلك انقسمت المجتمعات الأولى إلى طبقات، وصار الكثيرون يمارسون الاستعلاء ويتوارثونه في مجتمعاتهم، وأصبح ترتيب الناس على حسب رؤى إقصائية تهمش البشر وتميزهم من حيث أصولهم، وتضع حداً للمساواة، فزعموا أنهم لا يستوون ولا يتساوون في الأصل فحسب بعض الاعتقادات السابقة فإن الشعوب تنقسم إلى طبقات خلق بعضها من رأس الألهة فهي طبقة مقدسة لا يرق أحد إليها و خلق بعضها من قدميه فهي منبوذة(الواعي،1988،ص540).

حملش امعمر

وهذا التصنيف كان ممارسا بشكل مطلق فحُرم الإنسان من أبسط حقوقه، وتحتّم عليه القيام بكل الواجبات لاسترضاء الأسياد، حيث كانت الطبقة الدنيا محرومة من الحقوق و الامتيازات وعليها واجبات كثيرة فتوارثت الطبقات العليا الشرف والمال وتوارثت الأخرى الذل والفقر والعبودية جيلا وراء جيل(أبو خليل، 1982، ص329)، وصارت المساواة من المواضيع المسكوت عنها، وهذه الطبقة عرفت مجتمعات كثيرة منها (الهند واليونان و عند الرومان وفي بلاد فارس)(أبو خليل، 1982، ص329).

ظنّ الإنسان أنه بمجيء الدين سيتخلص من شقائه و يفتّحه مجالا لتحقيق بها كرامته وترجع حقوقه، إلا أنّ بعض الأديان حطّمت شخصية الإنسان وحملته على أن يقدم نفسه قربانا للآلهة، وكانت تُغري الإنسان أن يتخلى عن إرادته في مقابل إرادة الإله ،و الظهور بمظهر العاجز، وكانت تدفع الإنسان لأن يتطلع عن طريق الدعاء والتوسل والتضرع لتحقيق ما يصبو إليه من الآلهة(شريعتي، 2006، ص10). ولا شك أنّ رؤية رجال الدين وقراءاتهم، قد زادت من تعقيد وضعية الإنسان، إذ نجد أنّ الدين الذي كان يُنظر إليه بأنه مخلص للإنسان من التفاوت وطقوس الرق والاستعباد، كان هو الآخر عقبة شكّلت له تحديا كبيرا لبلوغ المساواة، ثم أدرك الإنسان أن بعض الأديان تحول بينه وبين تحقيق أهدافه وطموحاته، لأنه في الواقع لطالما تعرض للانتهاك بذرائع دينية مختلفة والكثير من الجنايات والمظالم والاعتصابات ارتكبت في التاريخ باسم الذود عن الدين (الرفاعي، 2018، ص197).

ومن جملة هذه الأديان اليهودية، التي نجد فيها ملامحا كثيرة في تمييز وتصنيف الناس على حسب الانتماء الأيديولوجي، فاليهود يعتقدون أنهم الصنف الأول لأنهم شعب الله المختار وأحبّاه، وغيرهم أمميون حقراء وعبيد لهم، لأنهم حيوانات على صورة بشر، خلقوا لخدمة اليهود فقط(الواعي، 1988، ص46)في التلمود تستوقفنا نقاط أساسية ارتكز عليها اليهود أحبارا وشعبا ، للمحافظة على

الإنسانية في الفكر الغربي والإسلامي بين رهانات المساواة وتحديات التفاوت

منزلتهم الاستعلانية في تصنيف البشر، فهم شعب مميز، وغيرهم بلا كرامة، فلا مجال للمساواة بينهم، والتفاوت لا بد منه حسبهم، وهذه أحد نقاط معاداة الإنسانية لأنها (ترتكز على أساس عنصري) (عوض، 2010، ص41).

أما الديانة المسيحية في بدايتها كانت (تحمل المحبة والعدل والرحمة) (عوض، 2010، ص42) للناس جميعا، فلم تفرق بينهم، فكلهم في نظر الشريعة المسيحية متساوون في الحقوق والواجبات، وقد دعا السيد المسيح إلى المساواة بين الناس وأوصى أتباعه أن يعاملوا الناس بمثل ما يحبون أن يعاملوا به فكانت دعوته تصحيفا لليهودية الفاسدة (الواعي، 1988، ص47) فاطمأن الناس بذلك، وتعممت المسيحية في الأمصار، (لكن صداها كان محدودا، فالعبودية لم تلغى وظل التقسيم الطبقي قائما) (عوض، 2010، ص42)، خاصة بعد ظهور القديس بولس، الذي أعلن في رسالته إلى أهالي روميا باعترافه بالرق والاستعباد والخضوع للسادة.

والسلاطين حسبه في مرتبة الله ومن يقاوم السلطين فإنه يقاوم الله والمقاوم مُدان بفعله لأنه حاول التمرد على الطبيعة (الواعي، 1988، ص47) التي هو عليها، لذلك أصبحت الشعوب الأوروبية في العصور الوسطى على طبقات متفاوتة تفاوتاً كبيراً فهناك طبقة النبلاء أو الأشراف وطبقة رجال الدين أو الإكليروس وطبقة العامة وآخر الطبقات في أوربة البرجوازية التي كونت غناها على أكتاف الشعب الكادح (أبو خليل، 1982، ص328).

وهكذا استمر وضع الطبقة في الفكر المسيحي بين الأسياد والعبيد فوصل (الحد عند الرومان أنهم كانوا يدرّبون أبناءهم على الرمي بالسهام ويجعلون العبيد هم الهدف) (جمعة، 2014، ص16) وكل هذه الممارسات عجلت في الانتفاضة على وضعية الإنسان المضطربة، بغية وضع حد لمعناته، إلى (قيام الثورة الفرنسية

التي أعلنت المساواة بين الجميع وأنهت نظام
العبودية(عوض، 2010، ص42) الذي انتشر وعمّر طويلا .

وعند الأمم والحضارات السابقة لم تختلف صورة الإنسان كثيرا كما أنّ
وضعيته عرفت التصنيف في حقه وأصله وفق معايير عنصرية، ففي الحضارة
المصرية القديمة تم تصنيف الناس على ثلاثة شُعباً الأولى هي بيت الألهة من حكام
الفراعنة، والثانية سكان مصر الأصليين وهي نواة المجتمع المصري، و الثالثة وهم
العبيد من العبرانيين وهم دونهم منزلة، وعند أمم آسيا الوسطى كالمغول والأتراك و
الصين واليابان والهند وغيرهم يتم تصنيف الناس على أربعة طبقات متفاوتة
فالطبقة الأولى هي طبقة رجال الدين والكهنوت وهي المميزة والممتازة والثانية
(شترى) وهم رجال الحرب و المقاتلين والثالثة (ويش) وهم أهل الصناعات و
الحرف، والرابعة (شودر) وهم أصحاب الخدمات المختلفة فالبراهمة حسب (قانون
مينو) مخلوقون من فم القادر المطلق وشترى من سواعده و ويش من أفخاذه
وشودر من أرجله (الواعي، 1988، ص42-44).

وفي اليونان سيطرت نزعات عنصرية متطرفة ترتب البشر أصنافا وتحدد
مهامهم، و لا يخفى علينا أنّ المجتمع الإغريقي تأسس على التفاوت، بين يونانيين
عقلاء وبرابرة متوحشين ،فحسبهم أنّ اليونانيين لهم الأفهام والعقول وغيرهم
مجردون منها(الواعي، 1988، ص45).

2.2 الإنسان والإنسانية في الفكر الغربي بين مرحلتين.

يتميز الفكر الغربي الحديث والمعاصر بمباحثه الواسعة حول حقوق
الإنسان، ومحاولاته رد الاعتبار للبشرية، فبلا شك أن حركة الدفاع عن حقوق
الإنسان في التاريخ الإنساني و على مر الأزمنة و العصور، و في كل الأمم والشعوب هي
حركة في غاية النبل لأنها جاءت لكي تُعيد للإنسان إنسانيته، و تصون كرامته وتحمي

الإنسانية في الفكر الغربي والإسلامي بين رهانات المساواة وتحديات التفاوت

حقوقه، وتؤمن له حياة كريمة، وترفع عنه الظلم والقهر و التعسف، التي عاناها الإنسان كثيرا خلال مسيرته التاريخية الطويلة (الميلاد، 2012، ص134).

لذا أسهم رواد الفكر الغربي في البحث عن بدائل حضارية تنظم شؤون الفرد والمجتمع، وتضع حدا للممارسات الوحشية، وتحقق العدالة التي كانت مغيبة تماما، ولتثبيت نظمت تعلق بحقوق الإنسان وواجباته، دون إقصاء أو تمييز لأحد عن الآخر، حتى أنّ هناك مجموعة من المفكرين يرون أن (النزعة الإنسانية عادة ما تنبثق في سياقات ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية محددة تشكل إطارا مناسباً لتبلورها) (الرفاعي، 2018، ص196).

لقد كان الدافع قويا لتأسيس فكر إنساني في الغرب ليضع حدا للتمييز الذي لحق الإنسان أينما حل أو ارتحل، فكان النبلاء ورجال الدين يتميزون بثيابهم الخاصة ورواتهم العالية وسطوتهم الشديدة إلى جانب إعفائهم من الضرائب وتخصيصهم ببعض ريعها وكان الانتساب إلى هاتين الطبقتين وراثيا (أبو خليل، 1982، ص328) وهو ما جعل الأمر يستمر، ويسود الغرب، وهذه المرحلة تعتبر عصرا للظلمات في تاريخ الغرب.

لم يستمر الوضع على ما كان عليه، بعد أن قامت الثورة الفرنسية سنة 1789 وألغت نظام الطبقات (و أعلنت نظريا مبادئ الحرية و الإخاء و المساواة) (أبو خليل، 1982، ص328)، فتولى الفلاسفة ورجال السياسة زمام الأمور في القرن الثامن عشر، وحاربوا الرق ونادوا بالمساواة بين الناس، وأصدروا عدة قرارات في مجموعة مؤتمرات دولية نظمت في كل من الولايات المتحدة الأمريكية 1794 وفيينا 1815 وفرنسا سنة 1848 و وبرلين 1885، فأعادوا التنظير للإنسانية من خلال هذه المؤتمرات (عوض، 2010، ص48)، وكانت هذه أول مراحل تثبيت وإرساء قواعد حقوق الإنسان في الفكر الغربي.

حمدش امعمر

عرفت أوروبا بعد مرحلة النهضة عدة نزعات إنسانية، كانت بديلا للدين فنزعات الأنسنة، ومنظمات الإنسانية (أومانيسم)برزت(كرد فعل لمذهب الاسكولاستيكية والدين المسيحي في القرون الوسطى)(شريعتي،2006،ص11)وهذا هو البديل الذي ركز عليه مفكرو الغرب، من أجل بعث روح الإنسانية والمساواة من جديد، بل تعد الأمر ذلك إلى مرحلة تأليه الإنسان، ولم يتشكل هذا إلا في القرن الثامن عشر في أوروبا بعد القطيعة الكاملة مع لاهوت القرون الوسطى(الرفاعي،2018، ص196)، عدا منظمة الأومانيسم التي ظهرت في بدايات القرن التاسع عشر(الرماح،2017،ص19).

وهذه نقطة تحول كبرى في تاريخ البشرية جعلت الإنسان، يرتقي من منزلة المهمش إلى منزلة أسمى، فالمجتمعات الغربية والمدنية الحديثة قد(أقامت بناءها الفكري على نظرية أصالة الإنسان أومانيسم أي نظرية تقديس الإنسان)(شريعتي،2006،ص10)، وبذلك قامت مجموعة كبيرة من المنظمات التي تنادي إلى تقديس الإنسان في كندا وأستراليا وأمريكا وبريطانيا وإيرلندا وصارت منتشرة في بقاع كثيرة من العالم(الرماح،2017،ص37-38).

وهذه التحولات الكبرى كانت باعثا جديدا لتأسيس المنظور الجديد للإنسان، من حيث ما ينبغي أن يكون عليه وفق رؤى فلسفية مستقلة عن اللاهوت والدين، وأصبح يعتقد هؤلاء بعدم امكانية انبثاق نزعة انسانية تتمحور حول مركزية إلهية وإنما لا تولد هذه النزعة إلا بعد التمحور حول الإنسان وإحلاله في مركز الإله، وهو مالم يتحقق في الماضي وإنما تحقق في العصر الحديث(الرفاعي،2018،ص197)، ومرجعية هذه النزعة مبنية على نظريات فلسفية كنظرية الحق الطبيعي، وحتمية الصيرورة التاريخية(الرماح،2017،ص15).

الإنسانية في الفكر الغربي والإسلامي بين رهانات المساواة وتحديات التفاوت

لكن إذا ما قاربنا بين نظريات الأنسنة و بين تطبيق ذلك على أرض الواقع، يتبادر إلى أذهاننا إشكالا جوهريا، وهو(هل لدى الغرب ما يقدمه للبشرية من شيء في عالم الحضارة الحقيقية و القيم والأخلاق و العدالة على الرغم من توفر كل إمكانات التقنية الحديثة وفرصها؟)(السلومي، 2017، ص84) أم هذا مجرد تنظير ومحاولات محكوم عليها بالفشل؟، وكما هو معلوم فإن النزعة الإنسانية قد تعرضت (في الغرب الحديث لمراجعات نقدية جادة ومتواصلة من قبل الكثير من المفكرين المدافعين عن إنسانية الإنسان)(الرفاعي، 2018، ص199).

إنّ الأنسنة الغربية حسب آراء الكثير من المفكرين الغربيين(تكتفي بالتلاعب اللفظي في الصالونات الأدبية المنفصلة عن الحياة اليومية للطبقات الكادحة والمهمشة والمستعبدة)(الرفاعي، 2018، ص199) وهي ما اصطُح عليها بالأنسنة الشكلية، والكثير من مفكري الغرب اعتبروا أن الأنسنة الشكلانية ليست إلا مفهوما مجردا أو تجريديا منفصلا عن واقع الوجود وهو ما عبر عنه ميشال فوكو عبر شعاره الشهير موت الإنسان، بعدما شاهد وحشية وعنف الاستعمارات التي اجتاحت دول العالم الثالث(الرفاعي، 2018، ص199) فالدمار الذي خلفه الغرب، يجعلنا نشكّك في نظرهم للإنسانية، التي لا تختلف عن المرحلة الوسيطة.

ففي أوروبا لا تزال طبقة رأسمالية تملك القوة و المال، تسير دفة الحكم وفي إنجلترا لا يزال مجلس اللوردات يتمتع بصبغته الرسمية، كما لا يزال فيها قانون إقطاعي يقضي بأن يُحرم جميع الأبناء من الميراث عدا الابن الأكبر في العائلة، منعا لتفتيت الثروة كما كانت تفعل طبقة الإقطاعيين في العصور الوسطى(أبو خليل، 1982، ص328)، كما أننا نلمس كيلا بمكيالين إذا ما تعلق الأمر بالمختلف معه، فمثلا نجد الغرب(لم يقبل منح الإمبراطورية العثمانية حق الناس إلا في منتصف

القرن التاسع عشر مع إضافة بعض التحفظات بسبب إنسانيتها البربرية كما يقول بوازار(عويس، 2006، ص72).

إن واقع اليوم يبين لنا أن الغرب يملك الكثير من المفردات الحضارية والمنظّمات الإنسانية التي تهتم بالإنسان والأقليات والعمّال والشعوب، لكن بمقاربة ذلك مع واقع التطبيق، نجد الهوة كبيرة والفرق شاسعا والحقيقة أن واقع الممارسات العنصرية يبقى قائما وممارسا بشكل فعّال، إذا ما تعلق الأمر بين الأبيض والأسود أو الغربي والآخر، و دليل ذلك سكوتهم عن انتهاكات حقوق الإنسان في الكثير من الدول غير الغربية في العالم(السلومي، 2017، ص80-81) وفي الوقت الذي تكثّر فيه نداءات احترام الإنسانية ومراعاة حقوق الإنسان نسمعا لأحاديث المفجعة عن التمييز العنصري في إفريقيا والجرائم المروعة في العالم وعن ووضعية الزواج و الملونين في أمريكا(السباعي، 1998، ص57).

لا يمكن طمس حقيقة التمييز العنصري المؤسس على اللون في مجتمعات راقية حضارية مثل أمريكا وبريطانيا وغيرهما من الدول التي لها أكثر تمثيل في هيئة الأمم، إلا أنها تقوم في هذا العصر بأبشع جرائم اضطهاد الإنسان على مر التاريخ فمثلا في الولايات المتحدة الأمريكية تمارس أكثرها ضد الزواج فجيمس بيزنز عضو مجلس الشيوخ يؤكد أن بلاده ملك الرجل الأبيض و يجب أن تظل كذلك(السباعي، 1998، ص58-59) وانتشر هذا التمييز كثيرا، وهذا تقليد متوارث وليس جديد حسب نورم إلين فالأبيض في المعتقد الغربي المعاصر هو أصل التفوق و(الحضارة الغربية البيضاء هي المعيار الذهبي للعقلانية والموضوعية)(الرماح، 2017، ص96).

وكأمثلة عن التمييز الحاصل في الولايات المتحدة على سبيل المثال، فصل المتدربين البيض عن السود في عشرين ولاية، وبعض الولايات تصدر كتبا

الإنسانية في الفكر الغربي والإسلامي بين رهانات المساواة وتحديات التفاوت

مختلفة للسود وبعضها تمنع زواجهم من البيض حتى لا تختلط الأعراق، بل والأغرب من ذلك في مصحات الأمراض العقلية يفصلون بين المجانين البيض وبين المجانين السود، وحتى الكنائس الكاثوليكية لم تسلم من التمييز العنصري بين الأبيض والأسود(السباعي، 1998، ص59-60).

و في ذلك يقول الاقتصادي فكتور بيرلو: (لقد انتشرت سموم التعصب العرقي في طول البلاد وعرضها وتسربت إلى مجاري الحياة الأمريكية جميعا، فإذا بجماهير الشعب تتعود اصطناع تعابير الاستخفاف والاحتقار في معرض الإشارة إلى الزنحي والأقليات القومية الأخرى)(السباعي، 1998، ص61).

فالمساواة الإنسانية في الفكر الغربي الحديث والمعاصر هي مجرد مباحث مثالية، وإلا فإن حاضريهم استعلائي مدمر(عويس، 2006، ص72) يصنف الناس والدول وحتى القارات ويرتبهم على حسب الرؤيا الغربية، لذا فمبدأ التفاوت يبقى قائما، ما دام الغرب يقسم العالم إلى عالم أول و ثان و عالم ثالث و مازال هناك من يقول أن الجنس الأبيض أفضل من الجنس الأسود أو الأصفر ، و مازال هناك من يسمي المسلمين همجا وبرابرة و يعطي نفسه صفة الحضارة وحق السيادة(عويس، 2006، ص72) فالفكر الغربي فشل في مسعاه في تحقيق الأفضل للبشرية فحقها للغرب فقط، بل حتى في الغرب ينعم بها الأبيض دون الأسود.

3. الإنسان والمساواة في الفكر الإسلامي.

1.3 الإنسان و واقع التفاوت قبل الإسلام.

نشأ الإسلام في بيئة تصعب فيها الحياة، لقساوة ظروف الحياة الاجتماعية وصعوبة التعامل مع جميع الناس لطبيعة التفاوت السائد، والمقنن كعُرف يحتّم على الناس اتباعه والعمل بمقتضاه، ففي مكة كان الاجتماع البشري فيها مرتبا على حسب الأعراق وسمو الأنساب ما بين الأشراف ودونهم وكذا طبقة العبيد من ذوي

حمدش امعمر

البشرة السوداء من الأحباش وغيرهم، وكان نظام الرق والاستعباد منتشرًا (جمعة، 2014، ص16) وشائعًا، ومعمولًا به كتقليد مُسلم به.

غلب التفاضل بين الناس والتفاخر بالأنساب وهي سمات طغت على مجتمعات شبه الجزيرة، فاعتاد النَّاس على ذلك ورضي كل واحد منهم بحتمية هذه الأعراف العنصرية، وقبل أن يُقيم الإسلام أصول الأخوة العالمية عمل على هدم العبودية التي كانت قائمة، ونظام استعلاء الطبقة الخاصة المتحكمة في شؤون المجتمع العربي، المكرس للرق والعبودية، كما عمل على تحرير العبيد وإدخالهم بشق الأساليب في الإخاء الإنساني (الجندي، 1980، ص210).

لقد عقب الإسلام مرحلة تعتبر مظلمة جدا سادت فيها عادات غريبة جدا منها الاستهانة بالنفس البشرية واحتقار الأنثى، التي كانت تقتل مباشرة وتُدفن حيّة خوفا من العار، وهذه الشناعة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية، والعرب كانوا يستحون إذا رُزق أحدهم بأنثى، لذلك كانوا يتفننون في قتلها، فيتركوها حتى تصل إلى السادسة من عمرها فتُزِن، ثم تُدفع في حفرة في الصحراء دفعا، كي تذهب إلى أحماؤها كما زعموا، وهناك من تلد ابنتها بجانب حفرة حتى يتخلصوا منها، وغيرها من عادات الاستعباد القسري للأنثى، كإرغامها على الرعي وغيرها من الأعمال الحقيرة (قطب، 1972، ص3839-3840).

كما كان الناس يُباعون ويُشترَوْنَ في أسواق العبيد، بأثمان متفاوتة ذكرا وأنثى، حتى الصبية، فلم يكن هناك رحمة للبشرية أو لأرواح الناس، والمجتمعات العربية قبل الإسلام كانت مقسّمة ما بين شريف ومشروف، وما بين سيّد ومسود وطغت على هذه المجتمعات الانتصار للقبليّة والعصبيات والأنساب والأعراق والجنس (الخطيب، 1992، ص28)، والحاصل أن شبه الجزيرة كانت مصنّفة وفق طبقات كثيرة، واحدة فوق أخرى، على حسب النسب، والذكر فوق الأنثى في جميع

الإنسانية في الفكر الغربي والإسلامي بين رهانات المساواة وتحديات التفاوت

الأحوال، والأنثى إن سلمت من القتل عاشت في تضيق وتهميش إلى أن تموت، بل حتى والدها كان يتعرض للمضايقات بسبب بناته، فكانوا يخاطبونه كراهية موصوفة الأبتير.

2.3 الإسلام ودعوة المساواة الإنسانية.

أصل الإسلام في البداية مبدأ الشورى في نظامه العام بين جميع الناس حتى يقضي على الاستبداد والديكتاتورية وليضع حدا للطغيان والتحكم في شؤون الناس (الخطيب، 1992، ص28) ولا يحدث احتكارا للسيادة مثل احتكار بني لاوي من اليهود، أو البراهمة من الهنود، ولا يتميز فيه شعب عن آخر، ولا نسل عن نسل وليس الاعتماد فيها على العرق و الدم بل الاعتماد فيها على الحرص والشوق وحسن التلقي و التفوق في الاجتهاد (الندوى، 1986، ص31-32) أما (تقرير الحقوق والواجبات في الإسلام مصدره الله عزوجل) (عثمان، 1982، ص16) وهي أوامر قطعية لا تقبل النقاش أو التأويل، ومن جملة هذه الحقوق العدالة والمساواة والوفاء بالعهد وتحقيق الحرية المطلقة للناس جميعا والحريات الشخصية وحرية الرأي و المعتقد و الحريات السياسية (نصير، 1989، ص28-29).

الإسلام لم يقر أي فروق في الجماعة أو الأمة على أساس اللون أو تفضيل الجنس أو اللغة، وقد سوى بين الأجناس جميعا، وأقام وحدة عالمية تجمع مختلف العناصر والأقوام، بصرف النظر عن الفوارق المتباينة فشجب بذلك الدعوة العنصرية القائمة على الدم ومنع التفاضل ولم يجعل الأنساب ميزانا لتقدير الناس، فالناس في الإسلام متكافأ دماؤهم و أموالهم (الجندي، 1980، ص210-211) ولا شك أن هذا قد غلق المنافذ التي تؤدي إلى استرقاق الأحرار وجعلهم عبيدا تحت إمرة أسيادهم وهم لا يملكون ضرا و لا نفعا لأنفسهم، واتخذ لذلك صورا للتضييق على نظام الرق حتى أغلقت أبوابه تماما (جمعة، 2014، ص16) في أقل من عقد من

حمدش امعمر

الزمن، فالدعوة التي صار الناس عليها، جعلتهم يُدركون جيدا، ويعرفون يقينا أنهم(كلهم أشباه وأنداد كلهم مخلوقون وكلهم عباد)(عثمان، 1982، ص17)وبذلك(كرم الإنسان رجلا وامرأة وتدرج في القضاء على العبودية)(عوض، 2010، ص45).

أقام الإسلام معالم الدولة على أهم الأسس التي تحافظ على استقراره وتضمن سيادة الاحترام في المجتمع الجديد، ألا وهي العدل والمساواة ومن عظمة الإسلام أنه يمزج بين العدل والمساواة، فالحق أنه لا حرية ولا مساواة بلا عدل وبلا شريعة حاكمة للناس جميعا على قدم المساواة(عويس، 2006، ص53) فالعدل هو تحقيق المساواة تطبيقا وتحقيقا، والمساواة الحققة(تكمن في عدم التفرقة بين إنسان و آخر سواء في النظرة أو المعاملة على أساس خلقي يخرج عن فعل الإنسان واختياره)(جمعة، 2014، ص7).

لقد ثبت الإسلام المساواة تثبيتا دقيقا، فارتبطت بالعدل فجعلهما كأنهما كلمة واحدة أو علامة ذات وجهين وهذا الحق لا شك فيه فالعدل يفقد معناه إذا كان لأصحاب دين دون دين أو لقومية دون قومية أو لطبقة دون طبقة بل يجب أن يكون مطلقا بلا حدود(عويس، 2006، ص53).

ولقد أكد النبي ﷺ على ضرورة التحلي بمبادئ المساواة الإنسانية والعمل على نشرها وليس مجرد التمسك بها كشعار يتزين به المرء، وشدد على ترك العادات القبلية، فكان يطلق عليها لفظ عادات الجاهلية، ولم يستثنى توبيخ أحد من أصحابه إذا ما تعلق الأمر بعصبية أو طعن، كقصة أبي ذر مع بلال الحبشي (السباعي، 1998، ص50)أو قصة أسامة بن زيد لما أراد الشفاعة للمخزومية التي سرقت، وحديث جابر بن عبد الله عن المساواة وترك التمايز والتحيز للألوان والأعراق والأنساب، يبين حرص النبي ﷺ على ترسيخ قيم المساواة و العدل بين الناس، فلا

الإنسانية في الفكر الغربي والإسلامي بين رهانات المساواة وتحديات التفاوت

فرق بين أحمر و لا أسود و لا أعجمي ولا عربي إلا بالعبادة، وتدل على مدى استثمار النبي ﷺ في تعليم الناس احترام الإنسان وتقدير كرامته دون أدنى التفاتة إلى لونه أو جنسه أو عرقه أو لغته (جمعة، 2014، ص12-15).

وكأحسن رد للنبي ﷺ على دعاوي الجاهلية، ودحضا للعنصرية والاستعلاء قد أمر بلالا الحبشي يوم فتح مكة أن يصعد فوق الكعبة ليؤذن من فوقها ويعلن كلمة الحق و الكعبة هي الحرم المقدس عند العرب في الجاهلية، وهي القبلة المعظمة في الإسلام (السباعي، 1998، ص55) فاختره النبي من جملة أصحابه ليكون ذلك إقرارا منه و(إعلانا لكرامة الإنسان على كل شيء، وأن الإنسان يستحق هذه الكرامة لعلمه وعقله وأخلاقه وإيمانه لا لبشرته وبياضه) (السباعي، 1998، ص55).

نقلت شريعة الإسلام الإنسانية من أجواء الحقد والكراهية والتفرقة والعصبية التي عمّت شبه الجزيرة العربية وضواحيها إلى أجواء الحب والتسامح والتعاون و التساوي أمام الله، ولدى القانون و في كيان المجتمع تساويا لا أثر فيه لاستعلاء عرق على عرق أو فئة على فئة أو أمة على أمة (السباعي، 1998، ص47) فالإسلام أكد على تأصيل (أسس للمساواة باللفظ والنص والقانون ليكون كل شيء واضحا مقررا منطوقا، فمنع بذلك خرافة التعالي الكاذب) (الواعي، 1988، ص540).

والناس كلهم متساوون في الحقوق و الواجبات وليس هناك فرق بين ذكر و أنثى (الواعي، 1988، ص541-543) فكل ما يصدر من الناس من أفعال عنصرية أو مناداة للطبقية أو شرف الانتماء فليس من الإسلام في شيء، بل يمثل دعائه وحسب ولا نص في الدين من ذلك.

4. خاتمة

حمدش امعمر

العدالة الاجتماعية اليوم أصبحت مطلبا ضروريا وحاجة ماسة لتحقيق فرص العيش للجميع، عيشا يضمن حرية وحرية تضمن إبداعا، وهذه العدالة يجب أن تكون حقيقية ومستمرة، لا تستثني أحد ولا تتجاوز فئة، فلا شك أن العدالة الحققة التي يبحث عنها الإنسان هي الخالية من الطبقية و التمايز في اللون أو العرق أو النسب، فإن تلطخت بشيء مما ذكرنا صارت مظهرا وحسب وأصبحت صورة مطابقة لما كان عليه الإنسان من قبل.

دائما ما يتساءل الإنسان في نفسه عن أصله وأصل غيره من بني جنسه من البشر، هل الأصل واحد؟ أم هناك تفاوت في ذلك؟ فإن ثبت واقعيًا وتاريخيًا أنه من أصل واحد، فالاختلاف إنما يكون في تفاوت العقول والأفهام فقط، ويزيد عن ذلك اللون غالبا ما بين أبيض وأصفر وأسود، وهذه العوامل لا يمكن أن تصنع فوارقا تؤدي إلى التنافر أو التناحر.

فإنسانية الإنسان لكي تتحقق على الأرض وجب احترام الأصول المتباينة لا اعتمادها كمبدأ للتصادم، فليست هي من تصنع الفارق الحضاري فالإنسان أخو الإنسان من جهة الأصل و الخلق، وهذا الأصل الثابت هو ما يفتح بابا كبيرا لرد العنصرية المتوحشة وكتبها، فمتى غابت المساواة الإنسانية وتكرست نزعات الاستعلاء تغيب الحرية وتموت النزعة الإنسانية، وإن حصل العكس انبعثت العدالة و تسود قيم التعددية وحق الاختلاف وتزدهر النزعة الإنسانية وتقوم قيمها وأخلاقياتها ومفوماتها المثالية في المجتمعات.

البشرية اليوم بأمس الحاجة إلى تعزيز نزعة إنسانية جديدة تختلف عن التجارب السابقة، عبر استيعاب الحياة الروحية الخصبة في الدين، وإحياء التجارب الإيمانية المتأصلة، من أوامر الدين ونواهيه وتوجيهات الرسل والأنبياء والحكماء، فإحياء النزعة الإنسانية الدينية يدحض كل الممارسات المتحيزة للأجناس و

الإنسانية في الفكر الغربي والإسلامي بين رهانات المساواة وتحديات التفاوت

العناصر، ويفتح المجال أمام الجميع، ويوفر فرص العيش للكل، بلا رق وبلا عبودية كلاسيكية، وكي يتحقق ذلك وجب على المصلحين الإحاطة بنصوص الدين المتروكة وتخطي فلسفات الإنسان المتعالي والمتحيز.

فالنصوص الدينية تحتوي على الكثير من القيم الروحية والأخلاقية والجمالية والواقعية الحقيقية التي تقوم على المساواة وبعيدة عن التفاوت والعنصرية المؤسسة على الطبقية ومن هنا فإنه يجب أن تطبق مفاهيم المساواة لتأسيس وتأصيل الإنسانية في إطار من احترام الاختلافات وفوارق اللون والجنس بين الناس لكي لا تضيع حقوقهم المشروعة.

5. قائمة المراجع:

- أبو خليل شوقي، (1982)، *الإسلام في قفص الاتهام*، (ط5)، دمشق: دار الفكر.
- الجندي أنور، (1980)، *الإسلام والعالم المعاصر*، (ط2)، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- الخطيب عدنان، (1992)، *حقوق الإنسان في الإسلام*، (ط1)، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.
- الرفاعي عبد الجبار، (2018)، *الدين و النزعة الإنسانية*، (ط3)، بغداد: مركز دراسة فلسفة الدين.
- الرماح ابراهيم بن عبد الله، (2017)، *الإنسانوية المستحيلة*، (ط2)، الرياض: دار وقف دلائل للنشر.
- السباعي مصطفى، (1998)، *من روائع حضارتنا*، (ط1)، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.
- السلومي محمد بن عبد الله، (2017)، *الإسلام و الغرب بين المنافسة والصراع*، (ط1)، الرياض: مركز الفكر الغربي.

حملش امعمر

العلواني طه جابر ،(2003) ، الخصوصية و العالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، (ط1)، بيروت: دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع.

الميلاد زكي، (2012)، الفكر الإسلامي قراءات و مراجعات، (ط1)، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث و النشر.

الندوى أبو الحسن، (1986)، الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية، (ط1)، القاهرة: دار الصحوة للنشر.

الواعي توفيق يوسف،(1988)، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، (ط1)، المنصورة: دار الوفاء للطباعة و النشر و التوزيع، مصر.

جمعة علي، (2014)، المساواة الإنسانية في الإسلام بين النظرية و التطبيق،(ط1) ، القاهرة: دار المعارف.

شريعتي علي،(2007)، الإنسان و الإسلام،(ط2)، بيروت: دار الأمير للثقافة و العلوم.
عثمان محمد فتحي،(1983)، حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية و الفكر القانوني الغربي، (ط1)، القاهرة: دار الشروق.

عوض أحمد عبده،(2010)، حقوق الإنسان بين الإسلام و الغرب،(ط1) ، الجيزة: ألفا للنشر و التوزيع .

نصير آمنة محمد،(1989)، إنسانية الإنسان في الإسلام،(ط1)، القاهرة: دار الشروق.
قطب سيد، (1972)، في ظلال القرآن، (ط1)، القاهرة: دار الشروق.